العرب
الجمعة 2019/10/04
السنة 42 العدد 11487



# «لوحات الشارع» معرض مفتوح على المارة

## فن الغرافيتي يزيل وحشة الجدران وقساوة الأسمنت بشوارع الرباط

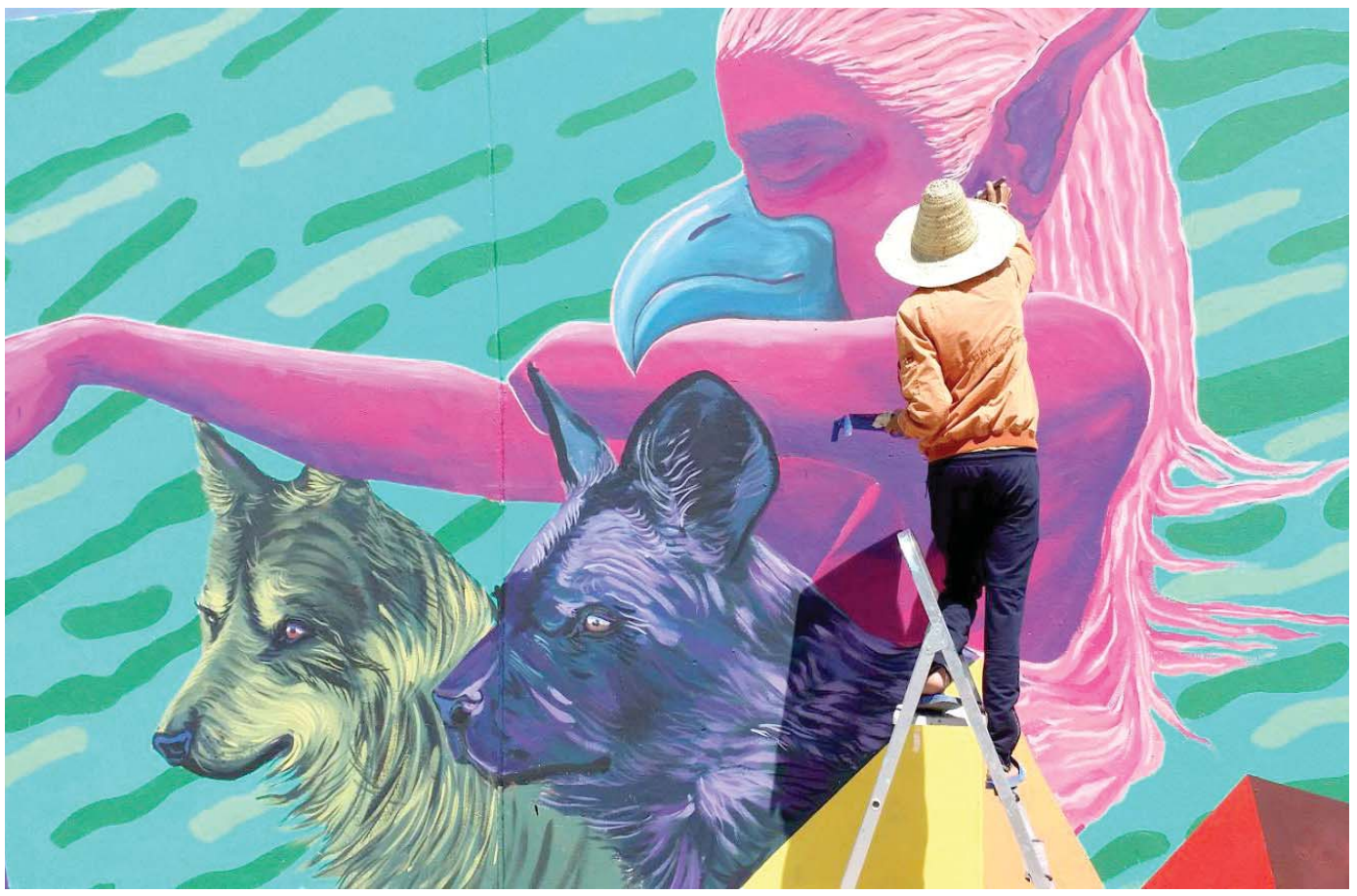

رسومات تتحرك بالتتابع مع خطوات المارة

تحوّلت جدران العاصمة المغربية الرباط إلى معارض تتحرّك رسوماتها بالتتابع مع خطوات المارّة، الذين تشغلهم الحياة ومشاغلها وصعوباتها عن الاستمتاع برؤية ما يبدعه الفنانون التشكيليون من جمال في معارضهم وسط المدينة، حيث أصبح فن الغرافيتي معرضا مفتوحا بشكل دائم لمن يعيش وسط المدينة أو على هامشها.

فيصل عبدالحسن
كاتب مغربي

الرباط – لم تعد وظيفة فن الغرافيتي في المغرب محصورة برسومات "الألتراس" (مشجو كرة القدم المتعصبون) وما يخطه بعض العابثين على الجدران من عبارات خادشة للحياء أو كتابة الشتائم والتعريض بالآخرين، فقد أقيم مؤخرا بالرباط مهرجان تحت عنوان "لوحات الشارع" تم فيها رسم إحدى عشرة لوحة غرافيتي على جدار مواز لشارع أحمد رضا أكديرة وسط العاصمة المغربية من قبل أحد عشر فنانا مغربيا وأجنبيا ذكّرت المارّة بهذا الشارع بفنون "الرابرز". فليس غريبا أن تعود أصداء موسيقى الهيب هوب لذاكرة المارّة، وهم يراقبون فناني الغرافيتي يرسمون بالفرشاة والرول كولر والبخاخات لوحاتهم.

> وظيفة فن الغرافيتي بالمغرب لم تعد محصورة بالرسومات الخادشة للحياء، لتتجاوزها إلى فن جمالي يزيّن شوارع العاصمة المغربية

والمهرجان الجديد للوحات الشارع بالرباط أشرفت عليه، المدرسة الوطنية للهندسة المعمارية المغربية، ونفّذه رسامون، من المغرب وهم: حسناء لحجر، المهدي الزموري، غالب الطيب، بكر بنعويس، ووقع الباقون جدارياتهم بأسماء شهرتهم: حباري، دينام، مشيمة، عمرو، نداوة، ديمام ودانا من كندا.

ومرأى الأصباغ وهي تلطّخ صدريات الفنانين وسراويلهم وكذلك الأرصفة، علاوة على الفرشاة التي تصنع وجوها ملوّنة، يفكّكون من خلالها فنون الفلكلور المغربي والخيال الشعبي، ذلك ما تلاحظه من خلال رسمهم الغرافيتي لحيوانات ضخمة وسراويل طائرة وسيارات ألعاب أطفال متصادمة ومقاطع كرتونية وتراث معماريّ يزيل وحشة الجدران وقساوة الأسمنت بامتداده الطويل وزواياه الحادّة.

### اشتباك الأصابع

اتّسمت موضوعات ما رسم على جدار شارع أحمد رضا أكديرة، بنوع من الواقعية والمشاركة الوجدانية، حيث اهتم الرسام دينام، مثلا، برسم غرافيتي عن اشتباك الأصابع لكفّيْ عاشقين، واتسم رسمه بذلك الشوق الكامن في نفوس العاشقين بالاتّصال البدني لتبادل حرارة الشوق من خلال اشتباك أصابع الكفّين. رسمها الفنان باللون الرصاصي المائل للسواد، وحرّك فرشاته بأناة، كأنما يحضّر أرواحا ذائبة في العشق، من خلال رسم أنامل نحيفة تنساب فوق بعضها بحركة حانية. ليؤكد من خلالها استحالة الارتواء من مسّ أصابع المحبين، لما في النفوس العاشقة من شوق للالتحام خطوطها، لتغدو كفا واحدة بعشرة أصابع.

أما حسناء لحجر فقد رسمت السمكة السحريّة، التي تتمنى كل فتاة أن تكونها في أحلامها، بأصدافها الفضية المشوبة بالزرقة الفيروزيّة، يلتفّ حول جسدها الناعم بقوة جسد ضخم ممتد لفرس البحر، ولا تسمح قبضته لها إلاّ بطلّة سعيدة على العالم، وكأنها متواطئة مع فرس البحر الذي يقيّد حركتها.

والفنانة دأبت في الكثير من لوحاتها السابقة على رسم الملابس الفلكلورية المغربية، وكأنها ترسم على الزجاج، وموضوعاتها مبهجة ومعظمها عن علاقة الذكر بالأنثى. وهي تخلط في رسمها الغرافيتي بين فن الكولاج واللصق والأكريليك.

وقدّمت الفنانة نداوة رسما تجريديا، من خلال لوحة جدارية جعلت الرائي يتخيّل ما يراه بأي شكل يتوافق مع حالته النفسية. خطوطها البيضاء المتموّجة ذكّرت بزبد البحر، وموجات الأطلسي الهائلة وهي تغمر الساحل برغوة ضخمة تكاد أن تكون بديلا للموجات الزرقاء الهادرة، قبل أن تتحوّل عند الساحل إلى رغوات متبدّدة. أو هي ربما تمثّل أيضا غيوما متداخلة أحداها تدفع الأخرى مثل قطيع الخراف المسرع إلى زريبته.

### رقصة «الرابرز»

استخدم الفنان غالب الطيب عين الكاميرا كما في التصوير الفوتوغرافي، ليرسم بورتريها لوجه غير مكتمل، يستطيع الرائي أن يوصل الفجوات غير الملوّنة للبورتريه، بين العينين والأنف والفم والجبهة. ويعيد صياغة الوجه ليكتمل، كما يفعل المصوّر الفوتوغرافي وهو يُظهر الصورة في مظهرها الكيميائي، جزءا جزءا، بحركة متوالية في إغراق الصورة في السائل. والطيّب هنا، يُذكّر بأول فنانيْن رسما الغرافيتي، ليكلينوس وفريدي في معرضهما الريادي بروما في العام 1979 واللذين أبدعا في رسم الوجوه غير المكتملة. وهو ما يفعله الفنان المغربي الذي يجعل المارّ على شارع أحمد رضا أكديرة ملهوفا لظهور وجه البورتريه مكتملا، لكنه يبقيه وجها ناقصا في طور الظهور غير المرئي ليكمل تفاصيله خيال المارّين.

> الموضوعات التي رسمها الفنانون المغاربة على جدار شارع أحمد رضا أكديرة اتسمت بنوع من الواقعية والمشاركة الوجدانية

وتميّزت جدارية المهدي الزموري بتحويل أشكاله إلى قصص مرئية يكملها الخيال بقصص أخرى مستلهمة من عالم الكرتون وأفلامه، مذكّرا بما تمتلكه تلك الأفلام من قوة خيال وابتكارات للطفل وعوالمه، ويبدو تأثر الزموري بفنيْ الكوميكس والكاريكاتير واضحا في رسوماته.

والفنان الذي وُلد بمدينة مكناس، انعكس تراث المدينة القديمة بتراثها وألوان معمارها في ما أنجزه من رسم غرافيتي. فلوحة الجدار التي رسمها نقلت ما نلاحظه في الصناعات التراثية خصوصا الزربية المغربية ومناديل الرأس التي تضعها نساء منطقة الأطلس، مع إبرازه لتعدّد الألوان والأشكال الهندسية من دوائر ومنحنيات وخطوط مستقيمة.

وفن الغرافيتي اقترن منذ بداية ظهوره بموسيقى الهيب هوب الراقصة، التي كانت تعبيرا منذ ستينات القرن الماضي بتجسيد صوتي وموسيقي لغضب الشباب السود، ورفضهم لأوضاعهم السيئة في الولايات المتحدة. وكانت وقتها وسيلة لتعبير "الرابرز" الراقصين المبتهجين بالحياة والحالمين بالحرية.

وهذا التداخل بين فن الغرافيتي وفنون الرابرز بدا جليا في مهرجان "لوحات الشارع" بالرباط، حيث تفاعل بعض المارّة بالرقص مع ما يشاهدونه من لطخات الأصباغ التي يضعها كل فنان على جداريته، فتراهم يرقصون على وقع موسيقى الهيب هوب المتخيّلة من قبلهم. في حين يقوم أصدقاؤهم بتسجيل رقصاتهم في فيديوهات عبر هواتفهم الذكية، ممّا يعني أنهم سيقومون ببثها لاحقا في مواقع التواصل الاجتماعي، ناقلين إلى الأهل والأصدقاء حالة الفرح التي شعروا بها وهم يتطلعون إلى رسومات الجدار الراقص.

الجمع بين الفلكلور والخيال

# عندما يحفر الطالب اسمه حفرا على الطاولة

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

المشهد: طلّاب يخرجون كالعاصفة من صفوفهم بعد رنين كل جرس يشير إلى انتهاء الحصة الدراسية. يتزاحمون كالنحل بطنينه. يتعاركون ممازحين بعضهم بعضا حتى يصلوا إلى صف آخر ليتلقوا فيه درسا آخر في مادة أخرى.

هناك في هذا الصف ينتظرهم المدرس أو المدرسة وقد أصابهما القلق من خسارة عشر دقائق من الحصة التي لا تتعدّى الخمسين دقيقة، قبل أن يستقر هؤلاء بمتاعهم المحمول على أول كرسي وقع نظرهم عليه ليعيدونا في رؤيتهم إلى لعبة "كرسي كراسي" الشهيرة.

وبعد انتهاء هذه الحصة يعودون إلى التدافع من جديد للوصول إلى صف آخر، وهكذا دواليك في تقطع الأوقات ومُضاعفة مرات رنين الجرس حتى انتهاء الدوام المدرسي.

لم يصل الفن التشكيلي المعاصر بعد إلى تقديم أعمال فنية بديعة تجسّد هذه اللحظات من "الفوضى الخلّاقة" بما تحمل من معاني دفينة في لوحات كما حدث في السابق، حيث كثرت الأعمال التي تصوّر الأستاذ في صف هادئ وفي حميمية ساعات التعليم التي لا يمكن تجاهلها أو التقليل من شأنها.

ما تلى وصفه في أول المقال، هو مشهد من المشاهد اليومية العربية المدرسية التي تعتمد مؤخرا، لحاقا بركب الدول الغربية، مبدأ لكل صف أستاذ عوضا عن مبدأ لكل مجموعة من الطلاب صف واحد يتلقّون فيه تعليمهم حتى نهاية السنة.

ويعتبر الباحثون والمُحدثون في مهنة التعليم، التي كغيرها من المرافق تتعرّض لتغيّرات هائلة على كل الأصعدة بسبب تغيّر المجتمعات والأولويات والمواد المدرسية، أن هذا النظام الجديد هو أفضل من القديم لأسباب عديدة أهمها أنها من ناحية تتيح للطلاب التحرّك عبر التنقّل ما بين الصفوف وإفراغ طاقاتهم التي كانت لساعات محبوسة في صف واحد.

كما يعتبر هؤلاء أن هذا النظام يجعل من ناحية أخرى لكل صف جوّا خاصا به مرتبطا بالمادة الدراسية المُقدّمة فيه. فمثلا في صف مادة الفرنسية يزيّن أستاذ المادة، الصف بصور الأدباء والشعراء الفرنسيين، بينما في صف الرياضيات يعرض أستاذها المُجسمات التي أنتجها الطلاب من وحي هذه المادة.

وفي ذلك وجهة نظر مهمة يحرص المدافعون على هذا النمط العصري على المرافعة عنه بسلسلة من الافتراضات منها أنه في تلك الصفوف الحديثة لم يعد طلاب الصف الرابع (الشعبة) "يملكون" المساحة. وينتج عن ذلك أنهم لن يفرّطوا في ممتلكات الصف ولن يعيثوا فيه "دمارا" لأنه، تماما، ليس ملكهم ليفعلوا ذلك وليس لهم الحق ولا الحرية في التصرّف فيه، إذ فور مغادرتهم سيُعرف حتما من منهم ألقى القمامة أو من منهم دمّر أو بعثر نظام الطاولات والكراسي قبل أو بعد أن ينتقل إلى صف آخر. سيكون المدرس في هذا الصف هو "الملك" الضارب بقوانينه والنافذ في أوامره.

غير أنه ثمة تناقض ما بين ما "يبشّر" به هذا النظام من انعتاق وإرساء أجواء تريد أن تكون مُشجّعة على الدراسة، وما بين ما يحدث فعلا. أولا في ذهن الطلاب بما يتعلّق بمعنى الحرية والانضباط، وثانيا، وربما الأخطر، في تركيبة شعورهم بالانتماء إلى مكان ما يملكونه هم وحدهم دون باقي طلاب المدرسة وخارج عن سلطة الأستاذ الكاملة. ولعل هذه المعادلة تبلغ أهميتها القصوى عندما يكون الطلاب عربا في دول عربية.

أليس بالأحرى أن يتعلّم الطلاب الحفاظ على نظافة صفهم لأنه "ملكهم" وأن يكون للحرية مذاقها الإنساني، أي مُنطلق من شعورهم بالمسؤولية تجاه المكان، مكانهم الذي يزيّنونه بأنفسهم ويقضون فيه معظم وقتهم ويصنعون فيه ذكرياتهم؟

أليس من الأفضل أن يختبروا قليلا من الصبر والانضباط في أقل من ساعات تفصل بينها فرص راحة؟ هل يجب رؤية هذا الانضباط، بل لنقل هذا "الولاء" للعلم على أنه نوع من العسكرة يصار فيها إلى سجن الطالب دون رحمة؟ أي سجن هو هذا السجن الذي يبذل فيه الأستاذ المعاصر جهده بأن يلوّنه بكل سبل التعليم المُطعّم أكثر فأكثر بالترفيه؟

هل بات من غير "العصري" أن نملك حس الصبر؟ ألا يحتاج الناشئ العربي إلى كل تلك السمات التي تجعل منه "مواطنا صالحا" في هيئة مُصغّرة عن الوطن الأوسع وهي "صف واحد لكل السنة"؟

> أي سجن هو هذا السجن الذي يبذل فيه الأستاذ المعاصر جهده بأن يلوّنه بكل سبل التعليم المُطعّم أكثر فأكثر بالترفيه

هنا نصل إلى حس الانتماء الذي ربما لم يعد يعني الشيء الكثير للعالم الغربي منذ زمن طويل، فهو يعيش "مغادرا" منذ لحظة بلوغه ما يُسمى بـ"سن الرشد"، وهو اليوم أكثر مُغادرة تحت عنوان "مواطن العالم".

لسنا بصدد مهاجمة هذا النمط، ولكن هل هذا ما تحتاجه اليوم الناشئة العربية؟ المزيد من الفوضى والشرذمة والترحال وهدر لحس الانتماء الذي بات مقرونا إما مع اللاجدوى أو مع الألم بالنسبة للعديد ممّن هجروا أوطانهم بسبب الحروب.

قليلا من الطمأنينة في صف يحمل بصماتهم ورائحتهم وأثر ضحكاتهم والكثير من التعابير الشبيهة بـ"نبيل كان هنا" محفورة بيد نبيل، أو يد رندة على مسامات الطاولات تأكيدا لذاتهم أولا وعلى قوة حضورهم. هذا ما نحتاجه.

لا بأس في أن تدفع المدارس ذات الأقساط الخيالية أموالا إضافية على تغيير تلك الطاولات المدموغة بـ"الأنا" كل سنة، وكأنها لأول مرة استعدادا لأن تُدمغ من جديد كل مرة وكأنها لأول مرة بيد تالية لمن "كان هنا".

حميمية ساعات التعليم لا تنسى